المحاضرة الأولى

المجتمع العربي قبل الدعوة الإسلامية

اصطلح المؤرخون على تسمية تاريخ العرب في شبه الجزيرة العربية قبل نزول الإسلام بالعصر الجاهلي، وذهبوا إلى أن العرب كانت تغلب عليهم البداوة، وتخلفوا عن الشعوب والأمم الأخرى التي سبقتهم أو عاصرتهم. وكان أغلب العرب يعيشون عيشة قبائل رحل، في جهل وغفلة، لم تكن لهم دول أو كيانات سياسية قائمة، ولم تكن لهم علاقات بدول العالم، جلهم أميون، يعبدون الأصنام، ليس لهم تاريخ حافل، لذلك عرفت تلك الحقبة التي سبقت الإسلام عندهم بالجاهلية.

والجاهلية، مصطلح مستحدث، ظهر بظهور الإسلام، وقد أطلق على عصر ما قبل الإسلام تمييزا وتفريقا لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة. فهي إذن نعت إسلامي من نوع النعوت التي أطلقها المسلمون على ذلك العهد، كما تطلق اليوم نعوتا وأسماء على العهود الماضية التي يثور الناس عليها. وفي كثير من تلك التسميات ما يدل ضمنا على شيء من الازدراء والاستهجان للأوضاع السابقة في غالب الأحيان.

واختلف الناس في فهم مصطلح الجاهلية، فهي عند بعضهم من الجهل الذي هو ضد العلم أو عدم اتباع العلم، ومن الجهل بالقراءة والكتابة، وفهمها آخرون أنها من الجهل بالله وبرسوله وبشرائع الدين وباتباع الوثنية والتعبد لغير الله، وذهب آخرون إلى أنها من المفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب والكبر والتجبر وغير ذلك من الخلال التي كانت من أبرز صفات الجاهليين.

والراجح ان الجاهلية من السفه والحمق والأنفة والخفة والغضب وعدم الانقياد لحكم وشريعة وإرادة إلهية وما إلى ذلك من حالات انتقصها الإسلام. وفي أيامنا هذه عادة ما تطلق كلمة جاهل على من يتسفه ويتحمق وينطق بكلام لا يليق صدوره من رجل، فلا يبالي أدبا ولا

يراعي عرفا، وتطلق أيضا على من لا يهتم بمجتمع ودين، ولا يتورع من النطق بأفحش الكلام، وربما يكون الذي تطلق عليه متعلما، أو حاملا لشهادة عليا.

وينقسم العرب إلى قسمين عرب الشمال وعرب الجنوب، واعتاد النسابون أن يقولوا: إن عرب الشمال من نسل إسماعيل بن إبراهيم ويسمون أيضا بالعدنانيين، وعرب الجنوب من نسل قحطان، ويسمون باليمنيين أو القحطانيين. وتوجد بين القسمين مجموعة من الفوارق الاجتماعية والحضارية، منها أن عرب الجنوب أهل حضارة وكانوا يعيشون حالة استقرار، وأهل الشمال تغلب عليهم البداوة والترحال.

وتعتبر القبيلة الوحدة السياسية عند العرب في الجاهلية، وهي تتكون من جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة، ورابطة العصبية هي شعور التماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم، وهي على هذا النحو مصدر القوة السياسية والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة. وقد تتحالف القبيلة مع قبيلة أو قبائل أخرى للإغارة على حلف آخر، أو للدفاع ورد غارة القبائل الأخرى.

وأفراد القبيلة الواحدة متضامنون وينصر أحدهم الآخر ظالما أو مظلوما، معتديا أو مدافعا، وإذا جنى أحدهم جناية حملتها كل القبيلة، وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ولرئيسها أفضل. وإذا أبت قبيلة أن تحميه لجأ إلى قبيلة أخرى ووالاها، واعتبر نفسه واحدا من أفرادها. وهذا الشعور بالارتباط بقبيلة يحميها وتحميه هو الذي يسمى بالعصبية. ولا يؤمن البدوي إلا بتقاليد قبيلته وما ورثه عن آبائه. ويفتخر العربي البدوي بمروءته وهي المثل الأعلى عنده، وهي تعتمد على الشجاعة والكرم. وتتمثل الشجاعة في كثرة من النزال والقتال في مواقف الدفاع عن القبيلة وتلبية النجدة. أما الكرم فهو يتمثل في نحر الإبل والماشية للضيف وإغاثة البائس والفقير، وأن يعطي أكثر مما يأخذ.

والمرأة تشارك الرجل في كل الشؤون مثل جمع الحطب وجلب الماء، ورعاية الماشية، وفي المسكن والملبس ... الخ، وهي أقرب في عقليتها للرجل ولكن لا يعتمد عليها في الحروب، وبما أن للحروب أهمية خاصة، انحطت قيمة المرأة عند العرب.

هذا بالنسبة للعرب البدو، أما العرب الحضر في اليمن وفي بعض مدن الحجاز، فقد كانوا يعيشون على التجارة أو الزراعة، وقد أسسوا قبل الإسلام ممالك ذات مدنية كاليمن، والغساسنة في الشام، والمناذرة في العراق.

وقد عبد العرب في جاهليتهم آلهة متعددة، منها القمر والشمس، وعبدوا الأصنام التي نصبوها حول مكة، وكانوا يعظمونها ويذبحون لها ويهدون لها، واعتاد عرب الجنوب أن يكرموا آلهتهم بإحراق العطور على مذابح الآلهة. وكان جماعة من العرب على دين سيدنا إبراهيم الحنيف، فكانوا يعظمون البيت الحرام، ويطوفون حوله.